الشامة و الفتاة البديلة

حين يعيد البحر ما سرقته الأقدار

رواية

رمضان مصطفى سليمان

كان البحر، في تلك الأمسية ، يبدو وكأنه شيخٌ حكيم يطوي في أمواجه آلاف الحكايات، ولا يمنح منها إلا ما يختاره بعناية. كانت الريح تمر خفيفة، تحمل رائحة الملح ممزوجة بشيء يشبه الذكريات القديمة، فيما كانت الشمس تنسحب ببطء خلف الأفق، كأنها تغلق آخر نافذةٍ في نهارٍ أنهكه الانتظار.

اعتدنا، نحن وجارتنا وصديقتنا التركية **بهار**، أن نلتقي كل أسبوع على الرصيف البحري، بعيدًا عن صخب الأسواق وضجيج السيارات. كنا نترك خلفنا ازدحام المدينة ، ونجلس على الشاطئ المقابل لمركز سلطان الشرق الكبير، حيث لا يسمع المرء سوى حديث البحر مع الصخور، ووشوشة النوارس وهي تعبر السماء في صمتٍ يشبه الصلاة.

كانت بهار مختلفة في ذلك المساء.

لم تكن المرأة التي اعتدنا ضحكتها الدافئة، ولا صاحبة الحكايات الخفيفة التي تنتهي بابتسامة. بدت وكأنها تحمل فوق كتفيها عمرًا كاملًا من الأسئلة التي لم تجد جوابًا.

ظلت تحدق طويلًا في الأفق ، حتى خُيّل إلينا أن عينيها لا تنظران إلى البحر، بل إلى زمنٍ آخر، بعيدٍ لا تبلغه السفن.

ثم تنهدت...

وقالت بصوت خافت، كأنها تخشى أن توقظ الكلمات أرواحًا ما زالت نائمة تحت الماء:

هذه ليست قصة امرأة واحدة... إنها قصة قلبين أضاعتهما الأقدار وسط الزحام، ثم أعادتهما الحياة من طريقٍ لم يكن أحد يتوقعه.

ساد الصمت. حتى الموج، للحظة، بدا وكأنه اقترب ليستمع.

قالت وهي تشبك أصابعها المرتجفة :

هل تؤمنون أن الإنسان قد يعيش نصف عمره وهو يظن أنه اختار طريقه، بينما الحقيقة أن الطريق هو الذي اختاره ؟

لم يجبها أحد.

لم يكن السؤال ينتظر إجابة ، بل كان يبحث عن اعتراف.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، لكنها كانت مليئة بالتعب.

كنت أظن أن القلب يتعلم بعد الخيبة... وأن الزمن يداوي كل شيء. لكنني اكتشفت أن الزمن لا يعالج الجروح، بل يعلمها كيف تختبئ.

ثم غرقت في صمتٍ آخر.

كان واضحًا أنها لم تعد معنا. كانت تسافر داخل نفسها.

وربما كانت تعود إلى فتاةٍ صغيرة، كانت تؤمن أن الحب يكفي ليبني وطنًا، وأن الصدق وحده يحمي الأحلام من الانكسار.

لكن الحياة كانت أكثر قسوة من براءة تلك الفتاة.

قالت وهي تنظر إلى الموج الذي يلامس الصخور :

الغريب أن الإنسان لا يخاف الفقد عندما يقع... بل يخاف أن ينسى ملامح ما فقده.

توقفت قليلًا.

ثم همست:

كنت أخشى يومًا أن أنسى صوته... ثم اكتشفت أنني لم أنسَ شيئًا. كنت فقط أخفيه في غرفةٍ بعيدة داخل قلبي.

كانت كلماتها تخرج ببطء ، كأن كل جملة تنتزع قطعةً من روحها.

أما أنا، فكنت أراقب ملامحها.

رأيت في عينيها امرأةً هزمتها الأيام، لكنها لم تسمح لها أن تسرق إنسانيتها. كانت تشبه الأشجار التي كسرتها الرياح، لكنها ما زالت تمنح الظل للمارة.

سألتها بهدوء :

وهل يعود الذين نحبهم حقًا ؟

ابتسمت، ونظرت إليّ بعينين امتلأتا بالحكمة أكثر مما امتلأتا بالدموع.

قالت :

لا... لا يعود أحد كما كان.

ثم أردفت :

لكننا نحن الذين نعود مختلفين.

صمتت لحظة، ثم أكملت :

أحيانًا لا تعيد لنا الحياة الأشخاص، بل تعيد إلينا أنفسنا التي ضاعت ونحن نبحث عنهم.

كانت الجملة كافية لتربك القلب. شعرت أن البحر صار أوسع. وأن الليل اقترب أسرع من المعتاد.

داخلها، كانت معركة لا يراها أحد. كانت تحدث نفسها بصوتٍ لا يسمعه سواها :

كم مرةً أقنعت نفسي أن النهاية قد حدثت ؟ وكم مرة عدت أفتش بين الرماد عن شرارة صغيرة ؟ لماذا يرفض القلب قوانين العقل ؟ لماذا يصر على الانتظار،

حتى بعد أن تغلق الأبواب كلها؟ هل الحب ضعف؟ أم أنه الشجاعة الوحيدة التي لا يتقنها إلا المنكسرون ؟

رفعت رأسها نحو السماء. كانت النجمة الأولى قد ظهرت. ابتسمت لها.

ثم قالت :

تعلمت شيئًا متأخرًا... الإنسان لا يموت حين يفقد من يحب ، بل يموت عندما يتوقف عن الإيمان بأن الحياة ما زالت قادرة على مفاجأته.

التفتت إلينا. وكانت المرة الأولى التي تنظر فيها إلينا منذ بدأت الحكاية.

قالت :

ذات يوم، بعد سنوات طويلة، رأيته.

شهق أحدنا دون قصد.

أما هي، فلم يتغير وجهها.

تابعت بهدوء :

لم يكن اللقاء يشبه الروايات.

ضحكت بخفة.

لم تتساقط الأمطار... ولم تعزف الموسيقى... ولم يتوقف الزمن.

تنهدت.

كان يقف في طابور طويل، يحمل أكياسًا ثقيلة، وقد غزا الشيب رأسه.

سكتت قليلًا.

أما أنا... فكنت أحمل العمر كله فوق كتفي.

سألتها صديقتنا :

وماذا قلتِ له ؟

هزت رأسها.

لا شيء.

ولا هو ؟

ابتسم فقط.

ساد الصمت مرة أخرى.

لكن تلك الابتسامة التي وصفتها كانت أبلغ من آلاف الكلمات.

قالت :

في تلك اللحظة أدركت أن بعض العلاقات لا تنتهي لأنها فشلت... بل لأنها أدت رسالتها.

ثم أغلقت عينيها. وكأنها تعيش المشهد من جديد. لم أعد أريده أن يعود.

قالتها بثقة هذه المرة.

كنت أريد فقط أن أعرف أنني سامحته... وأنني سامحت نفسي أيضًا.

كانت تلك الجملة نهاية حربٍ طويلة داخلها.

أدركت أن الإنسان لا ينجو حين ينتصر على الآخرين ، بل حين يتصالح مع ذاكرته.

و جلسنا متقاربين لنستمع إلى حكايتها .

كان الليل قد بسط عباءته فوق البحر. والموج يواصل صلاته الأبدية مع الشاطئ.

أما بهار، فقد بقيت جالسة.

كانت تنظر إلى الأفق نفسه الذي بدأت منه الحكاية.

لكن ملامحها لم تعد كما كانت. كان فيها سلامٌ هادئ، يشبه سلام المسافرين الذين أدركوا أخيرًا أن الطريق لم يكن يقودهم إلى شخصٍ آخر، بل إلى أنفسهم.

كانت تبتسم للبحر.

شعرت، عندها، أن البحر لم يكن يستمع إلى قصتها فحسب، بل كان يعيد إليها، مع كل موجة، الجزء الذي سرقته منها الأقدار ذات يوم.

ς

ساد الصمت في المكان ، ثم رفعت " بهار " رأسها، وأطلقت زفرة طويلة بدت كأنها خرجت من أعماق عمرٍ كامل، وقالت بصوتٍ مكسور، يختلط فيه الحنين بالأسى: هذه ليست حكاية امرأةٍ ثرية... بل حكاية قلبٍ حاول أن يهزم القدر.

كانت " **ديلوربا** " تنتمي إلى ذلك الصنف النادر من البشر الذين تمنحهم الحياة كل شيء، ثم تسترد منهم أهم ما يملكون. امتلكت ثروةً تتسع لها المدن، وهيبةً تجعل الأبواب تُفتح قبل أن تطرقها، وجمالًا هادئًا يشبه ضوء القمر حين يلامس البحر. غير أن جسدها كان يحمل عدوًا خفيًا ؛ مرضًا مزمنًا يلتهم أيامها في صمت ، كدودةٍ تنخر جذع شجرة شامخة من الداخل ، بينما تبقى أغصانها خضراء أمام العيون.

كانت تعرف أن الوقت لا يقف لأحد، وأن الأعمار ليست بعدد السنوات، بل بعدد الأحلام التي تتحقق. وكل ليلة، كانت تسأل نفسها: ماذا يبقى مني حين أغيب ؟ هل تختفي حياتي كما تختفي آثار المطر على الرمل ؟ أم أن طفلًا يحمل اسمي سيواصل الحكاية بعد أن ينطفئ صوتي ؟

ذلك السؤال كان يكبر داخلها حتى صار وطنًا من القلق.

وحين تقدم إليها رجلٌ بدا رقيق الحديث ، واسع الابتسامة ، كريم الوعود ، لم تقع في حبّه بقدر ما تعلقت بالأمل الذي حمله معه. كانت تقرأ عينيه كما يقرأ البحّار لون السماء قبل العاصفة. رأت في أعماقه جشعًا يختبئ خلف كلماتٍ منمقة ، وشهوةً للمال تتنكر في هيئة العشق.

وفي إحدى الليالي، حدّثته بهدوء:

أتؤمن أن الحب وحده يكفي ؟

ابتسم بثقة مصطنعة وقال :

إذا وُجد الحب، صار كل شيءٍ ممكنًا.

نظرت إليه طويلًا ، ثم ابتسمت ابتسامةً خافتة لا يعرف معناها إلا قلبها.

بل المال هو الذي تتحدث عنه، لا الحب... لكن لا بأس. لعل القدر يمنحني منك طفلًا، ثم يأخذك من حياتي كما يشاء.

كانت تدرك أنها لا تتزوج رجلًا بقدر ما تعقد صفقة مع الزمن. صفقةً تدفع فيها ما تبقى من عمرها ، لتربح روحًا صغيرة تمنح حياتها معنى.

ومرت الأشهر الأولى ثقيلةً كأنها تمشي على جراحها.

ثم جاء الطبيب ذات صباح ، وعلى وجهه ابتسامة لم تستطع إخفاء الخبر.

قال بهدوء :

مبارك... أنتِ حامل.

توقفت الدنيا للحظة.

لم تسمع شيئًا بعد تلك الكلمة. شعرت كأن نافذةً ضخمة فُتحت داخل قلبها، ودخلت منها الشمس لأول مرة منذ سنوات.

خرجت من العيادة وهي تضم بطنها بكلتا يديها ، كأنها تخشى أن يسرق الهواء هذا السر الجميل.

وفي تلك الليلة، وقفت أمام المرآة ، ولم ترَ امرأةً مريضة ، بل رأت أمًا بدأت الحياة تكتبها من جديد.

همست لبطنها :

أتعرف يا صغيري ؟ لقد انتظرتك أكثر مما ينتظر الليل طلوع الفجر. كنت أراك في أحلامي قبل أن توجد، وأسمع ضحكتك قبل أن تُخلق. لا تتأخر عليّ كثيرًا... لقد تعبت من الانتظار.

ومنذ ذلك اليوم، تغيّر كل شيء.

صار العالم بالنسبة إليها ينقسم إلى قسمين: ما يحمي طفلها، وما يهدده.

كانت تخاف من الريح إذا اشتدت، ومن المطر إذا طال، ومن السلالم إذا ارتفعت، ومن الأخبار الحزينة، وحتى من صوت الباب حين يغلق بعنف.

لكن أكثر ما كانت تخشاه... المرض.

كانت تعلم أن الأدوية التي تحفظ حياتها قد تؤذي جنينها، وأن التوقف عنها قد يعرضها هي للخطر.

جلست ذات مساء أمام علبة الدواء، وظلت تحدق فيها طويلًا. إن تناولتها... ربما آذيته. وإن تركتها... ربما متُّ أنا.

فأي قلبٍ يستطيع أن يختار بين حياته، وحياة ابنه ؟

أغلقت العلبة ببطء. دفعتها بعيدًا.

وقالت بصوتٍ مرتجف :

ليأخذ المرض ما يشاء مني... أما هو، فلا يمسه سوء.

ومنذ تلك اللحظة، دخلت في حربٍ صامتة مع جسدها. كان الألم يزورها كل يوم، لكنها كانت تستقبله بابتسامة. كل وخزةٍ كانت تقول لها إن المرض ينتصر، لكنها كانت تضع يدها على بطنها، فتشعر أن الحياة لا تزال تقاوم.

الليالي الطويلة، كانت تحدث جنينها كما لو أنه يجلس أمامها.

هل تسمعني ؟

وساد الصمت.

فتجيب بنفسها :

أعلم أنك تسمعني.

ثم تبتسم وهي تذرف دمعة. إذا تعبت يومًا... فلا تخف. سأسبقك إلى الألم. وإذا بكى قلبك يومًا... فسأكون الدعاء الذي يحرسك حتى بعد موتي.

وفي الغرفة المجاورة، كان زوجها يحصي الأرقام أكثر مما يحصي الأيام. لم يكن ينظر إلى بطنها، بل إلى خزائنها. كان يرى في كل قطعة أثاث رقمًا، وفي كل أرضٍ ميراثًا، وفي كل نفسٍ تتنفسه عقبةً تؤخر امتلاكه لكل شيء.

وذات ليلة، لمحها تكتب أوراقًا كثيرة. اقترب منها متصنعًا الفضول.

ماذا تكتبين ؟

أجابت بهدوء :

أكتب وصيتي.

ارتبكت ملامحه للحظة.

ولماذا الآن ؟

رفعت رأسها، وحدقت في عينيه طويلًا. لأن الموت لا يرسل موعدًا قبل أن يأتي.

ابتسم ابتسامةً باهتة، لكنه أخفى ارتباكه سريعًا.

أما هي، فكانت ترى ذلك الارتباك كما ترى النار في العيون.

بعد أن غادر الغرفة ، عادت إلى الورقة ، وأكملت الكتابة بثبات.

أوصت بأن تؤول ثروتها كلها إلى طفلها القادم ، لا إلى أحدٍ سواه.

لكنها لم تكتفِ بذلك. وضعت شرطًا غريبًا.

ألا يحق له التصرف في شيءٍ من الميراث حتى يبلغ العشرين من عمره، ويكون قد اختبر قسوة الحياة، وتزوج، وأصبح قادرًا على التمييز بين من يحبه لذاته، ومن يحبه لما يملك.

كانت تعرف أن المال ، إذا سبق النضج ، صار لعنةً أكثر منه نعمة.

وقّعت الوصية، ثم أغلقتها داخل صندوقٍ صغير. وحين انتهت، وضعت كفها فوق بطنها، وهمست :

قد لا أستطيع أن أحرسك بذراعيّ طويلًا... لكنني سأحرس مستقبلك بما أستطيع. وإذا غبت عنك يومًا، فتذكر أن أمًا أحبتك قبل أن ترى وجهك، وآمنت بك قبل أن تسمع صوتك، وخاضت مع الموت معركةً طويلة، فقط كي تمنحك فرصةً واحدة للحياة.

ثم أغمضت عينيها. وفي قلبها يقينٌ غريب، لا يشبه الخوف ولا الطمأنينة.

كانت تشعر أن القدر بدأ يكتب الفصل الأصعب من الحكاية... وأن الأمومة، التي انتظرتها العمر كله، قد تصبح أعظم انتصارٍ في حياتها، أو آخر ما تتركه خلفها قبل أن ترحل.

ς

غير أن القدر ، الذي ظل صامتًا طويلًا ، كان ينسج في الخفاء فصلًا أشد قسوة من كل ما تخيلته الأرواح الضعيفة. كانت الأيام تمضي هادئةً على نحوٍ يثير الريبة، كبحيرةٍ ساكنة تخفي في أعماقها دوامةً لا يراها أحد. وكلما اقترب موعد الولادة، ازداد الصمت ثقلاً، حتى بدا وكأن البيت نفسه يحبس أنفاسه انتظارًا لشيءٍ لا يجرؤ أحد على تسميته.

في تلك الليلة، انشقت السماء عن مطرٍ بارد ، وراحت الريح تصفع النوافذ كأنها تنذر العالم بخبرٍ أسود. بدأ المخاض.

كانت " ديلوربا " تتلوى فوق الفراش، تتشبث بيد القابلة مرة، وبحافة الغطاء مرة أخرى. الألم لم يعد مجرد وجعٍ في الجسد؛ لقد صار بحرًا يبتلعها موجةً بعد أخرى.

همست بصوتٍ متقطع :

أخبروني... هل ستعيش صغيرتي ؟

لم يجبها أحد.

كانت الوجوه تهرب من عينيها، لأن الحقيقة أحيانًا تكون أقسى من أن تُقال.

اشتد النزيف.

ازدادت الغرفة برودة، حتى خُيّل للحاضرين أن الموت دخلها قبل أن يُفتح له الباب.

صرخت " ديلوربا " صرخةً مزقت سكون الليل ، ثم خرجت الطفلة إلى الدنيا.

كانت صغيرةً حدَّ الدهشة. جميلةً بصورةٍ لا تشبه الأطفال حديثي الولادة، بل كأنها قطعة ضوءٍ هبطت من غيمةٍ بعيدة. وجهٌ ناعم، شفتان ورديتان، وأصابع دقيقة انغلقت للحظة حول إصبع القابلة.

ابتسمت القابلة رغماً عنها.

قالت هامسة :

يا لروعتها...

لكن الروعة لم تعش إلا أنفاسًا قليلة.

ارتفع بكاء الطفلة مرةً واحدة ، ثم خفت ، ثم تلاشى كشمعةٍ ذابت في مهب الريح.

ساد الصمت. ذلك الصمت الذي لا يشبه السكون، بل يشبه انكسار العالم من الداخل.

أما " ديلوربا " فقد كانت تنظر إلى السقف بعينين نصف مفتوحتين ، كأنها تبحث في البياض عن وجهٍ تعرفه.

تمتمت بصعوبة :

أين... طفلتي ؟

اقتربت القابلة، لكن الكلمات خانتها.

في تلك اللحظة أدركت " ديلوربا " الحقيقة، ليس لأنها سمعتها، بل لأن قلب الأم يعرف ما تعجز الألسنة عن النطق به.

ابتسمت ابتسامةً صغيرة، كانت أشبه باستسلام زهرةٍ لآخر نسمة.

همست بالكاد :

اعتني بها... إن بقيت...

ثم توقفت الكلمات.

ارتخت يدها ببطء، وسقطت إلى جانب الجسد.وغادرت. خرجت روحها بهدوءٍ غريب، كما تخرج طيور المساء من الغابة عندما يحل الظلام.

رحلت الأم. ورحلت ابنتها بعدها بلحظات.

في دقائق معدودة، تحول بيتٌ كان ينتظر ضحكات طفل ، إلى مأتمٍ يتسع للحياة كلها.

وقف الزوج في زاوية الغرفة، جامد الملامح.

لم يصرخ. لم يبكِ. حتى الدموع بدت وكأنها رفضت أن تمنحه شرف الحزن. كان ينظر إلى الجسدين المسجيين أمامه، لكن عينيه لم تكونا تريان الكفن ، بل شيئًا آخر لا يراه سواه. كان يرى الذهب. كان يرى الأراضي. كان يرى القصور التي رسمها في خياله. ثم رآها جميعًا تتبخر في لحظة واحدة.

كأن أحدهم فتح قبضته، فسقطت منها الثروة كلها في هوةٍ بلا قرار.

دار في رأسه صوتٌ مضطرب :

انتهى كل شيء...

تردد الصدى داخله.

ضاعت السنوات. ضاع المال. ضاع الإرث.

أغمض عينيه بعنف.

ولأول مرة لم يكن يفكر في المرأة التي شاركته حياته ، ولا في الطفلة التي لم تعرف الدنيا إلا لحظةً عابرة.

كان يفكر في نفسه فقط. وفي خسارته. وفي الفراغ الذي سيعود إليه.

خرج من الغرفة مترنحًا، وجلس وحيدًا تحت شجرةٍ عجوز أمام المنزل.

كانت الأمطار تنهمر فوق كتفيه، لكنه لم يشعر بها.

ظل يحدث نفسه بصوتٍ خافت :

كيف سأبدأ من جديد ؟ كيف سأواجه الناس ؟

سيقولون إنني خسرت كل شيء. سيسخرون مني.

كنت على بعد خطوة من الثراء... خطوة واحدة فقط.

ثم ضحك. ضحكةً قصيرة، جافة، بلا روح.

قال في نفسه :

أيعقل أن يضيع مستقبل رجلٍ لأن طفلةً ماتت بعد دقائق ؟

ساد الصمت.

لكن شيئًا آخر بدأ يتحرك في أعماقه.

كان صوتًا خافتًا في البداية، ثم أخذ يكبر ببطء، كدخانٍ يتسلل من تحت بابٍ مغلق.

قال الصوت: ربما... لم ينتهِ كل شيء.

رفع رأسه فجأة. راح يحدق في الفراغ. إن كانت الطفلة قد ماتت...

سكت لحظة.

ثم أكمل الفكرة التي أخافته قبل أن تغريه.

...فيمكن أن توجد طفلةٌ أخرى.

ارتجف. لم يكن من البرد. بل من هول الفكرة. راح يقاومها.

لا... لكنها لم ترحل. عادت أكثر وضوحًا.

رضيعة... طفلة في العمر نفسه. لا أحد يعرف وجه المولودة. لا أحد رآها إلا القابلة.

أخذت أنفاسه تتسارع.

كان يشعر بأن شيئًا مظلمًا يستيقظ في داخله، شيئًا ظل نائمًا سنوات، ينتظر اللحظة المناسبة ليكشف وجهه الحقيقي.

همس لنفسه :

لو أحضرت طفلةً أخرى...

توقف. ثم أكمل ببطء، كمن يوقع عقدًا مع الشيطان. وجعلتها ابنتها.

راح ينظر إلى الأرض المبتلة.

أخذ عقله ينسج التفاصيل بسرعةٍ مذهلة.

طفلة يتيمة... أو رضيعة فقيرة...

أحدٌ لن يسأل كثيرًا.

شهادة ميلاد. قصةٌ محكمة.

ثم تكبر الطفلة وهي تظن أنها الوريثة الشرعية.

وعندما يحين موعد تقسيم الثروة... سيكون هو الوصي. بل صاحب القرار.

شعر بحرارةٍ غريبة تسري في عروقه.

لأول مرة منذ إعلان الوفاة، عاد النبض إلى عينيه.

لم يكن نبض الحزن. بل نبض الطمع.

قال في نفسه :

إنها ليست سرقة.

ثم صحح عبارته سريعًا :

بل استعادة لما سُلب مني.

لكن ضميره، الذي ظل صامتًا طويلًا، همس من مكانٍ بعيد :

أتسمي اختطاف حياة إنسانٍ استعادة ؟

تجهم وجهه. رد بعصبية :

العالم كله يفعل ذلك.

القوي يأخذ. والضعيف يبكي.

عاد الصوت يسأله :

وماذا عن الطفلة ؟

ستعيش. لكنها ستعيش كذبة.

وما الفرق؟ الناس جميعًا يعيشون أكاذيبهم.

ساد الصمت مرة أخرى. وفي ذلك الصمت، لم يعد الرجل يشعر بأنه يقف على قبر زوجته وابنته، بل على عتبة طريقٍ جديد. طريقٍ لا يبدأ بخطوة، بل بجريمة.

نظر إلى نافذة الغرفة التي ترقد خلفها " ديلوربا " في كفنها الأبيض.

لم يشعر بوخزة ندم. ولم يطلب لها الرحمة. كل ما خطر بباله أنه لو استطاعت أن تعود للحياة دقيقةً واحدة، لكان أول ما سيطلبه منها توقيعًا جديدًا يضمن انتقال الثروة.

عندها أدرك، دون أن يعترف بذلك، أن الإنسان لا يتحول إلى وحشٍ في لحظة، بل يزيل عن وجهه القناع الذي ظل يرتديه سنوات.

ابتسم ابتسامةً باهتة. ثم نهض من مكانه. كانت خطواته بطيئة، لكنها واثقة. خلفه كان قبرٌ يُوارى في التراب.

وأمامه كانت جريمةٌ تولد بهدوء... كما تولد البذور في جوف الأرض، لا يسمع أحدٌ أول ارتجافةٍ فيها، حتى يأتي يومٌ تخرج فيه شجرةٌ كاملة من قلب الظلام.

ς

كانت الخادمة العشيقة تُدعى " **أيبرو**."

لم يكن في وجهها ما يشي بأنها عرفت يومًا معنى الطمأنينة. كانت ملامحها حادة كصخرةٍ نحتتها الرياح، وعينها الوحيدة تنظر إلى العالم ببرودةٍ تثير القلق، أما

العين الأخرى فلم يبقَ منها سوى أثرٍ باهت ، كندبةٍ تركها القدر ليذكّرها كل صباح أن الإنسان قد يفقد عضوًا، لكنه لا يفقد الألم.

غير أن أكثر ما فقدته " أيبرو " لم يكن عينها، بل قدرتها على التمييز بين الوفاء والعبودية.

كانت تؤمن أن حياتها ليست ملكًا لها منذ ذلك اليوم الذي وجدها سيدها ممددةً بين الحياة والموت، غارقةً في دمها، بعدما فقأ أحد المجرمين عينها وتركها على قارعة الطريق لتحتضر ببطء. مدّ الرجل يده إليها، أنقذها، وأطعمها، وآواها، لكنها لم تنتبه أن اليد التي أنقذتها كانت، في الوقت نفسه، تقيد روحها بسلسلةٍ لا تُرى.

ومنذ تلك اللحظة، صار الوفاء عندها دينًا، والطاعة صلاة، حتى وإن كانت الأوامر تُساق إلى الجحيم.

ς

في إحدى الليالي، وقفت أمام مرآةٍ مشروخة تتأمل نصف وجهها.

همست لنفسها :

أي عينٍ هذه التي بقيت لي؟ أتراني أبصر بها الحق، أم أنها لم تعد ترى إلا ظل الرجل الذي أنقذني ؟

ساد الصمت.

ثم أغلقت السؤال داخل قلبها كما يُغلق باب زنزانة.

كانت تعرف أن سيدها يريد طفلةً رضيعة، ولم تسأل لماذا.

فالأسئلة كانت رفاهيةً لم تسمح لنفسها بها منذ سنوات.

قصدت أكثر الأزقة عتمة، حيث تختبئ الوجوه التي نسيت شكل النهار.

هناك كان وكر المجرمين، حيث تُباع الضمائر كما تُباع السكاكين.

دخلت بخطوات ثابتة، حتى وقفت أمام الرجل الذي اقتلع عينها قبل أعوام.

حدّق فيها طويلًا، ثم انفجر ضاحكًا.

قال ساخرًا :

إذن... ما زلتِ حية.

أجابته بهدوءٍ أخافه أكثر من الصراخ :

وأنت ما زلت تبيع الشر لمن يدفع.

اقترب منها وهو يبتسم.

جئتِ لتنتقمي ؟

هزت رأسها.

لو أردت الانتقام لما جئت بالمال.

وضعت كيسًا ثقيلًا فوق الطاولة. ارتطم الذهب بخشبها، فارتجف الجشع في عينيه.

أريد طفلةً رضيعة.

اختفت ابتسامته.

طفلة ؟

نعم.

لأي غرض ؟

نظرت إليه بعينها الوحيدة.

ليس من شأنك.

ظل صامتًا لحظة ، ثم قال :

ومن تكون هذه الطفلة ؟

قالت :

لا أحد.

ثم أضافت بنبرةٍ أشبه بالاعتراف :

ذنبها الوحيد أنها ستولد في المكان الخطأ.

وافق الرجل.

وفي تلك اللحظة، لم يكن يدرك أن الصفقة التي عقدها لن تنتهي عند المال.

كان لذلك المجرم ابنٌ صغير يُدعى " **زاروك** " .

لم يكن الشر قد اكتمل في ملامحه بعد.

كان طفلًا نشأ في بيتٍ لا يسمع فيه سوى صليل النقود، ووقع الأقدام الهاربة، ورائحة الخوف.

لم يعلمه أحد أن للأمان شكلًا. ولم يخبره أحد أن الطفل يولد بريئًا، وأن البراءة تحتاج من يحرسها. كان يقلد أباه كما يقلد العصفور أول رفرفة. لا لأنه أحب الشر، بل لأنه لم يعرف غيره.

٥

في صباحٍ تغسل الشمس فيه الحقول بنورها، كانت فلاحةٌ شابة تجلس تحت شجرة توت. احتضنت رضيعتها، وأخذت تداعب أصابعها الصغيرة. ضحكت الطفلة. فضحكت الأم معها.

ثم قبلت خدها قائلة :

يا زهرتي... لو استطعتُ لأخفيتك داخل قلبي ، فلا تمسك الدنيا بك.

لم تكن تعلم أن الدنيا كانت قد مدت يدها بالفعل.

ومن بين الأشجار، كان " زاروك " يراقب المشهد. تردد.

شيءٌ ما داخله قال :

لا تفعل.

وصوتٌ آخر يشبه صوت أبيه همس :

الضعف لا يطعم الجائع.

تقدم بخطوات مرتجفة. اقترب أكثر.

كانت الأم منشغلة بتقبيل ابنتها.

مد يديه.وفي لحظةٍ خاطفة، انتزع الرضيعة من بين ذراعيها، وفرّ هاربًا.

استغرقت الأم ثانيةً واحدة لتفهم ما حدث.

ثم انشق صوتها عن صرخةٍ مزقت الحقول. ركضت خلفه بكل ما بقي في قلبها من حياة. لم تكن تطارد طفلًا. كانت تطارد قلبها وهو يبتعد. كانت الأرض تتعثر تحت قدميها، والأشواك تمزق ثوبها، لكنها لم تشعر بشيء.

كانت تصرخ باسم ابنتها، كأن الاسم وحده يستطيع أن يعيدها.

ومن بعيد، توقفت سيارة سوداء. فتح بابها. اختفى " زاروك " داخلها. وأُغلق الباب.

ورأت الأم السيارة تبتلع صغيرتها كما يبتلع الليل آخر خيطٍ من الغروب. سقطت على التراب. ضمت الهواء إلى صدرها. وبكت...

لأن الهواء وحده هو ما بقي لها.

جلس " زاروك " داخل السيارة، والرضيعة تبكي بين يديه.

لم يعرف كيف يحملها. كان الارتباك يسبق الخوف في عينيه.

ثم أمسكت الطفلة بإصبعه الصغير.

تجمد مكانه. نظر إليها طويلًا. كانت أصابعها أدفأ من كل ما عرفه في حياته.

همس في داخله :

كيف تخاف مني... ثم تمسكني هكذا ؟

للحظةٍ قصيرة، كاد يفتح الباب ويعيدها.

لكن صوت أبيه عاد يجلد ذاكرته.

أنجز المهمة. فابتلع تردده، وسلم الطفلة إلى " أيبرو ".

وحين انتزعتها من يديه ، انزلق من معصم الصغيرة سوارٌ فضي صغير، وسقط عند قدميه دون أن ينتبه أحد.

انحنى والتقطه. كان بسيطًا، لكنه بدا له أثقل من الحديد. أخفاه داخل جيبه. ولم يعرف لماذا.

ς

في الجهة الأخرى ، كان الأب يُحصي المال. كانت أصابعه تمر فوق القطع النقدية بشغف رجلٍ يظن أنه ربح العالم.

رفع رأسه نحو " أيبرو " وقال ضاحكًا :

صفقةٌ سهلة.

ابتسمت ابتسامةً باردة.

ليست كل الصفقات تنتهي عند العد.

خرجت من المكان. لكنها لم تكن وحدها.

في الخارج، كان رجلٌ آخر ينتظرها. أحد شركاء المجرم.

اقتربت منه وقالت :

المال كله سيكون لك.

رفع حاجبيه.

وماذا تريدين ؟

قالت دون أن ترمش :

أن يختفي.

ساد صمتٌ ثقيل.

ثم سألها:

ألهذه الدرجة لا تثقين بأحد ؟

أجابت :

من عاش بعينٍ واحدة... يتعلم أن يرى الخيانة قبل وقوعها.

ς

بعد ساعات، دوّى الرصاص. كان " زاروك " يقف قرب الباب. التفت مذعورًا. ورأى أباه يسقط أمامه.

تراجع الصبي خطوة. ثم أخرى. لم يصرخ.

كانت الصدمة أكبر من الصوت.

نظر إلى الدم وهو ينتشر ببطء.

وسأل نفسه :

هل يموت الآباء هكذا ؟

اقترب. أمسك يد أبيه. كانت باردة. لأول مرة شعر أنه طفل. ولأول مرة اكتشف أن الخوف لا يشبه القصص التي كان يسمعها.

إنه فراغ. فراغٌ يبتلع الإنسان من الداخل.

ς

مضى الزمن. وكبر " زاروك " . كبر جسده، لكن ذلك الطفل بقي عالقًا في داخله.

كان الناس يرونه شابًا قاسيًا.

أما هو، فكان كلما أغلق عينيه، عاد إلى ذلك النهار.

إلى الحقول. إلى المرأة التي كانت تصرخ. إلى الرضيعة التي أمسكت إصبعه.

كان يتساءل :

لماذا ما زلت أتذكرها ؟

ولماذا لا أنسى وجه أمها ؟ هل يمكن لثانيةٍ واحدة أن تلاحق إنسانًا طوال عمره ؟

لم يجد جوابًا.

ς

كان يحتفظ بالسوار داخل صندوقٍ خشبي صغير.

كلما ضاقت به الدنيا، أخرجه وتأمله. لم يكن مجرد قطعة فضة. كان شاهدًا صامتًا على الجريمة التي ارتكبها وهو لا يزال طفلًا. كان يشعر أحيانًا أن السوار ينظر إليه. يحاكمه. يسأله :

من سرق من الآخر ؟

أنت سرقت طفلةً... أم سُرقت طفولتك قبلها ؟

كان يغلق الصندوق سريعًا. لكن السؤال كان يبقى مفتوحًا داخله.

وفي ليالٍ كثيرة ، كان يجلس وحده تحت السماء. يرفع رأسه إلى النجوم ويتمتم :

لو عاد الزمن...

هل كنت سأفعلها ؟

يصمت طويلًا.

ثم يجيب نفسه بصوتٍ مكسور :

لا.

لكن الحقيقة كانت تؤلمه أكثر. فالزمن لا يعود. والندم لا يغيّر الماضي. إنه فقط يجعل الإنسان يرى جريمته بوضوحٍ أكبر كلما تقدم به العمر.

وهكذا عاش " زاروك " يحمل السوار في جيبه، ويحمل ذنبه في قلبه.

كان الناس يظنون أن أثقل ما يحمله الرجل هو السلاح.

لكن الحقيقة أن أثقل الأوزان هو الضمير حين يستيقظ متأخرًا.

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد السوار زينةً لطفلةٍ مجهولة ، بل صار القيد الوحيد الذي لم يستطع زاروك أن يكسره ، والجرح الذي ظل ينزف في أعماقه بصمت، ينتظر لحظةً قد يأتي فيها الغفران... أو لا يأتي أبدًا.

ς

ثم انقضت الأعوام، لا تمشي على مهل، بل تجري كأنها تخشى أن يراها أحد. كانت السنوات تمحو آثارًا وتصنع أخرى ، بينما القدر ينسج خيوطه بصبرٍ لا يعرفه البشر.

كبرت الطفلة المفقودة... لكنها لم تكبر بين الجوع والعتمة، ولا بين الأزقة التي تتقاسمها الرياح والغرباء، بل فتحت عينيها على سقوفٍ مذهبة، وثرياتٍ تتدلى كنجومٍ اصطناعية، وحدائق لا تعرف الذبول إلا حين يغيب أصحابها.

تبنتها أسرة ثرية بعد أن عثروا عليها رضيعة لا تحمل اسمًا ولا ماضيًا، فأطلقوا عليها اسم **" زيليش "** ، وكأن الاسم محاولةٌ لكتابة بدايةٍ جديدة فوق صفحةٍ امتلأت بالتمزق قبل أن تُكتب.

كانت جميلةً على نحوٍ يربك الأبصار.

وجهها يشبه صباحًا وُلد من الضباب، وعيناها الرماديتان تحملان سكون البحيرات التي تخفي في أعماقها مدنًا غارقة. أما ابتسامتها، فكانت قصيرة العمر، تظهر كوميض برق ثم تنطفئ قبل أن يطمئن إليها أحد.

كل من يراها كان يقول إنها محظوظة.

أما هي، فكانت تشعر أنها زهرة زُرعت في مزهرية من الذهب، لكنها ما زالت تبحث عن حفنةترابٍ تعرفها جذورها.

كبرت بين الخدم أكثر مما كبرت بين أهل البيت.

كانت تعرف أسماء العاملين واحدًا واحدًا، وتحفظ حكاياتهم الصغيرة، بينما لم تعرف عن الرجل الذي يدعوه الجميع والدها سوى صوته الحازم وخطواته الثقيلة وهي تعبر الممرات الرخامية.

كان يعاملها باهتمامٍ يشبه العناية بالمقتنيات الثمينة؛ لا بدافع الحب، بل بدافع الامتلاك.

علّمها أفضل المعلمين، وأغرقها بالكتب، وألبسها أفخر الثياب، لكنه لم يمنحها الشيء الوحيد الذي كانت تحتاجه... الدفء.

كانت تشعر أن القصر، على سعته، يضيق كل يوم. الجدران اللامعة ليست إلا أسوارًا مرتفعة، والنوافذ الكبيرة ليست سوى مرايا تعكس وحدتها.

ς

بلغت " زيليش " التاسعة عشرة، فصار والدها يحصي الأشهر كما يحصي التاجر مواسم الربح.

وقبل عيد ميلادها العشرين بستة أشهر، جمع الأسرة وعددًا من المقربين، ثم أعلن بصوتٍ لا يعرف النقاش :

لقد حددت موعد خطبتها.

ساد الصمت.

أما " زيليش " ، فقد شعرت أن الكلمات لم تدخل أذنيها، بل سقطت فوق صدرها كصخرة.

كان العريس هو " **جيهان** " ، ابن شريك الرجل في التجارة، ومديرًا عامًا للأمن ، صاحب نفوذ واسع وهيبةٍ تجعل الناس يزنون كلماتهم قبل أن ينطقوا بها.

كان شابًا مهذبًا، أنيقًا ، ناجحًا...

لكنه بدا لها أشبه ببابٍ حديدي يُغلق مستقبلها، لا رجلًا يفتحه.

نظر إليها الجميع منتظرين ابتسامتها.

ابتسمت. لكنها كانت ابتسامة الشخص الذي يوقّع على حكمه وهو بكامل وعيه.

لم تكن تكره " جيهان " . بل كانت تجهله. وكان الجهل، في نظرها، أكثر قسوة من الكراهية.

كيف يمكن لإنسان أن يقضي عمره مع شخصٍ لم يختره قلبه ؟ وهل تستطيع الأرواح أن تتصالح لمجرد أن العائلات اتفقت ؟

كانت هذه الأسئلة تلاحقها كل ليلة.

تجلس قرب نافذتها الطويلة، تحدق في السماء، ثم تهمس لنفسها :

أيعقل أن تكون حياتي قد كُتبت قبل أن أتعلم القراءة ؟ هل أنا إنسانة... أم صفحة في عقدٍ تجاري ؟ لماذا أشعر أنني أعيش قصةً تخص شخصًا آخر ؟

وكان الصمت يجيبها دائمًا... بصمتٍ أكبر.

لم تكن لها سوى صديقة واحدة. " **ملتم**. ".. ابنة شريك والدها ، وأخت " جيهان " .

كانت مرحة، كثيرة الضحك، تحاول أن تسرق " زيليش " من وحدتها كلما استطاعت.

غير أن حتى صداقتهما كانت محكومة بأسوار القصر. فوالدها لم يكن يسمح لها بالخروج إلا نادرًا، وكأن العالم الخارجي وحشٌ يتربص بابنته.

كل خطوة محسوبة. كل زيارة مراقبة. كل اتصال معلوم. حتى الهواء كان يدخل غرفتها بعد إذن.

ς

وفي الطابق العلوي، داخل غرفةٍ لا يدخلها أحد، كانت صورة امرأة تتوسط الجدار. امرأة فائقة الجمال. اسمها... " **ديلوربا**. "

قيل " لزيليش " إنها أمها. لكن أحدًا لم يحدثها عنها أكثر من ذلك. لا رسائل.

لا ذكريات. لا قصة. مجرد صورة. وكانت الصورة تتحول كل مساء إلى نافذةٍ على فراغٍ لا ينتهي. تقف أمامها طويلًا. ثم تبدأ حديثًا لا يسمعه سواها.

أمي...هل تسمعينني ؟ لماذا أشعر أنني يتيمة وأنت ما زلت تنظرين إليّ ؟ لماذا تركتِ صورتك فقط ؟ أكنتِ تحبينني ؟ أم أنني كنتُ عبئًا حتى عليكِ ؟

تقترب أكثر. تلمس إطار الصورة بأطراف أصابعها.

ثم تهمس بصوتٍ يرتجف :

كل البنات يعرفن رائحة أمهاتهن... أما أنا، فلا أعرف منك سوى لون عينيك.

تسكت قليلًا.

ثم يفيض ما في قلبها دفعةً واحدة.

أتعلمين ؟ أخاف. أخاف أن أستيقظ بعد سنوات فأجد أنني عشت العمر كله كما يريد الآخرون. أخاف أن أتزوج رجلًا لا يعرف صوت روحي. أخاف أن أتحول إلى امرأة تبتسم في الصور... بينما تبكي كل ليلة.

ثم تبتسم بمرارة.

الغريب أن الجميع يحسدونني. لو عرفوا أن القصور قد تكون سجونًا، لما تمنوا أبوابها.

كانت كثيرًا ما تغلق عينيها، وتهرب إلى عالمٍ لا يعرفه أحد.

هناك... لا وجود للعقود. ولا للألقاب. ولا للحراس. كانت ترى رجلًا مجهولًا. لا تعرف اسمه. ولا ملامحه كاملة. لكنها كانت تشعر به.

كان يأتيها في الأحلام ممتطيًا صهوة الريح، لا يحمل تاجًا ولا ثروة، بل يحمل طمأنينةً غريبة، كأن حضوره وحده يكفي ليعيد ترتيب العالم.

لم تكن تبحث عن أمير. كانت تبحث عن إنسان. شخصٍ ينظر إليها فلا يرى ثروة القصر، بل يسمع ارتجافة قلبها. رجلٍ يحررها من خوفها، لا يزين قيدها بخاتمٍ من الألماس.

وكان سؤال واحد يتكرر داخلها كل ليلة :

هل يوجد في هذا العالم من يستطيع أن يحبني... أنا ؟ لا اسمي... ولا مالي... ولا اسمي الذي منحني إياه الآخرون... بل أنا، التي لا أعرف حتى من أكون.

ς

وجاء يوم الخطبة. امتلأ القصر بالمدعوين. الأضواء تلمع. الموسيقى تعلو. الضحكات تتكاثر. والعطور تختلط برائحة الزهور البيضاء.

كان الجميع يحتفل. إلا صاحبة الحفل.

وقفت " زيليش " بثوبها الأبيض المائل إلى الفضي، تبدو كأميرة خرجت من لوحةٍ قديمة.

لكن داخلها... كانت مدينةً تحترق.

ς

وفي الوقت نفسه... كان رجلٌ آخر يعبر سور القصر. بخفة قطٍ اعتاد الظلام.

اسمه... |" **زاروك**. "

لصٌ محترف. عرفته الشوارع قبل أن تعرفه السجون.

لم يكن يسرق بدافع المتعة، بل لأن الحياة أقنعته منذ طفولته أن الجائع لا يملك رفاهية الأخلاق.

كانت عيناه حادتين كمن عاش عمره يراقب الأبواب المغلقة.

وكان يحمل في قلبه يقينًا واحدًا :

أن الأغنياء يخفون وراء جدرانهم ما يكفي لإطعام أحياءٍ كاملة.

تسلل بين الأشجار. ثم صعد عبر شرفة جانبية. واختبأ داخل غرفةٍ هادئة ، ينتظر اللحظة المناسبة.

قال في نفسه :

قطعة ألماس واحدة... خاتم... أي شيء...

ثم أختفي كما جئت.

لكنه لم يكن يعلم أن القدر كان يضحك في تلك الليلة. لأن أعظم ما سيخرج به من ذلك القصر... لن يكون ذهبًا.

فتحت " زيليش " باب الغرفة فجأة.

كانت تبحث عن لحظة هدوء تهرب بها من ضجيج الاحتفال.

دخلت دون أن تنتبه إلى الظل المختبئ خلف الستارة.

أما " زاروك " ، فالتفت في اللحظة نفسها. تلاقت عيناهما. تجمد الزمن.

لم تصرخ. ولم يهرب. بقي الاثنان يحدقان في بعضهما كما لو أن كل واحدٍ منهما رأى في الآخر شيئًا كان يبحث عنه منذ زمنٍ بعيد.

رأى هو فتاةً لا تشبه أصحاب القصور. ورأت هي رجلًا لا تشبه عيناه عيون اللصوص. كانت عيناه متعبتين... لكن التعب الذي فيهما يشبه الحقيقة.

أما هو، فلم ير في عينيها خوفًا. بل رأى وحدةً يعرفها جيدًا.

الوحدة نفسها التي كانت تنام إلى جواره كل ليلة في الأزقة الباردة.

قال في نفسه بدهشة :

كيف يمكن لفتاةٍ ترتدي كل هذا الضوء... أن تحمل كل هذا الحزن ؟

أما هي ، فسمعت قلبها يهمس لأول مرة :

هذا الغريب... لماذا أشعر أنني أعرفه منذ زمنٍ لم أعشه ؟

كان اللقاء قصيرًا... لكنه بدا أطول من عمرٍ كامل.

وفي تلك اللحظة، لم يكن أحدهما يعلم أن اللص الذي دخل القصر بحثًا عن كنز، سيغادره وقد سُرق منه أثمن ما يملكه...

قلبه.

ولم تكن الأميرة تعلم أن الرجل الذي اقتحم حياتها من النافذة، سيقتحم روحها أيضًا، ويبدل الطريق الذي رسمه لها الجميع، لتبدأ الحكاية الحقيقية من حيث ظن الجميع أنها انتهت.

ς

لم تكن الضوضاء القادمة من قاعة الخطوبة تصل إلى تلك الغرفة إلا كصدى بعيد، كأنها تنتمي إلى عالم آخر لا يمت بصلة إلى القلب الذي كان يختنق في صدر **" زيليش "** .

في الخارج كانت الموسيقى تعلن فرحًا جماعيًا، والوجوه تتبادل الابتسامات المصقولة، والكؤوس ترتفع احتفاءً بوعدٍ جديد. أما في الداخل، فكانت فتاة تقف على حافة انهيارها، تحاول أن تمنع روحها من السقوط.

دفعت الباب بقوة، ثم أغلقته خلفها حتى ارتجت جدران الغرفة ارتجافة خفيفة، كأن المكان نفسه شعر بثقل ما جاءت تحمله.

أسندت ظهرها إلى الحائط. أغمضت عينيها. وأطلقت زفرة طويلة، خرجت معها سنوات كاملة من الصبر المكبوت.

كانت أنفاسها متقطعة، وصدرها يعلو ويهبط كمن نجا لتوه من الغرق، بينما بقيت دموعها معلقة على أطراف عينيها، ترفض أن تنزل، وكأن الكبرياء يقف بينها وبين الانكسار.

رفعت رأسها ببطء. وقعت عيناها على صورة أمها المعلقة فوق الجدار. ابتسمت الصورة، أما صاحبتها فلم تستطع.

تقدمت خطوة، ثم همست بصوتٍ اختلط فيه العتاب بالحنين :

أماه... هل يسمع الموتى أبناءهم عندما يختنقون ؟ أم أن الرحيل يجعل القلب أصمّ حتى عن بكاء من تركهم خلفه ؟

ساد صمت كثيف. ذلك النوع من الصمت الذي لا يجيب، لكنه يضاعف الأسئلة.

أطرقت رأسها، ثم تابعت بصوت أكثر ارتجافًا :

لماذا رحلتِ مبكرًا ؟ لماذا تركتِ طفلةً تتعلم أن تكبر وحدها ؟ أتعلمين كيف يكون البيت بلا أم ؟

إنه يشبه شجرةً واقفة في الصحراء... تبدو حية من بعيد، لكنها تموت ببطء كل يوم.

ارتجفت شفتاها.

أبي... لم يعرف يومًا أن الحنان ليس ضعفًا. كان يطعم جسدي... ويترك روحي جائعة. كنت أبحث في وجهه عن حضنك... ولا أجد إلا جدارًا آخر.

ساد الصمت من جديد. لكن الصمت هذه المرة كان مليئًا بأصواتها القديمة. أصوات الطفلة التي كانت تقف خلف باب غرفتها كل ليلة ، تنتظر كلمة واحدة. احتضانًا واحدًا.

نظرةً تقول لها إنها محبوبة. ولم يأتِ شيء. كانت تكبر... وتتعلم أن تخيط كسور قلبها بنفسها.

ابتسمت ابتسامة باهتة، ثم قالت : غريب أمر الإنسان... نقضي أعمارنا نبحث عن شخص يقول لنا: أنت تستحق الحب. وحين لا نجده... نتحول إلى ممثلين بارعين. نضحك أمام الناس... وننهار عندما يغلق الباب.

اقتربت من المرآة. حدقت في انعكاسها طويلًا. ثم وضعت يدها فوق صدرها.

هناك... حيث تستقر تلك الشامة الصغيرة. شامة ليست كغيرها. داخلها حرفان متداخلان... **الزاي والجيم**.

بديا كأنهما نقشٌ تركته يد القدر على جلدها قبل أن تولد.

مررت أطراف أصابعها فوقهما برفق.

وقالت كأنها تخاطب العلامة نفسها :

من أنت ؟ ولماذا أشعر كلما لمستك أن أحدًا يناديني من مكان بعيد ؟ أي سرٍ تحملينه ؟ ولماذا يخبرني قلبي أنك لست مجرد شامة ؟

ثم رفعت بصرها إلى صورة أمها مرة أخرى.

أماه... أيعقل أن الإنسان يُولد وهو يحمل قصة لا يعرفها ؟ أيمكن أن يعيش عمره كله يبحث عن باب...ولا يدرك أن المفتاح كان في قلبه منذ البداية ؟

لقد تعبت... تعبت من السير. من التظاهر. من الخوف. ومن أن أكون جائزةً يتنافس عليها الرجال، لا روحًا تستحق أن تُفهم.

كانت الكلمات تخرج منها ببطء، لكنها كانت تثقب الهواء.

ولم تكن تعلم...

أن أحدًا يسمعها.

ς

خلف الستارة الثقيلة... وقف **" زاروك "** بلا حراك.

كان قد دخل الغرفة قبل دقائق، هاربًا من ضجيج الحفل، ولم يجد فرصة للخروج بعدما دخلت هي.

لكن ما أبقاه في مكانه لم يكن الخوف. بل الكلمات. كان يسمعها كما لو أنها لا تتحدث عن نفسها فقط... بل عنه أيضًا.

كل جملة كانت تصيب جزءًا خفيًا داخله. كل تنهيدة كانت توقظ وجعًا نام سنوات طويلة.

قال في نفسه :

لماذا أشعر أنني أعرف هذا الحزن ؟ ولماذا يبدو صوتها مألوفًا إلى هذا الحد ؟ هل التقينا يومًا ؟ أم أن الأرواح تتذكر ما تنساه العقول ؟

وقعت عيناه على يدها. على الشامة. على الحرفين المتداخلين.

وفجأة... تجمد الزمن. انكمش صدره. وشعر بأن الأرض تميد تحته. اندفعت إلى ذاكرته صورة خاطفة.

طفلة صغيرة. يدان تتشبثان ببعضهما. امرأة تصرخ. رجل يركض. صفير سيارة يشق الهواء.

ثم... فراغ. حاول أن يتذكر. لكن الذكرى كانت كضباب الفجر.

كلما اقترب منها... تبددت. وضع يده على رأسه.

همس :

ما الذي يحدث لي ؟

ازدادت دقات قلبه. بل لم تعد دقات. كانت مطارق.

شيئًا ما في تلك العلامة... كان يفتح بابًا قديمًا ظل مغلقًا سنوات.

شعر بأن الغرفة لم تعد غرفة. بل مفترق طرق بين الماضي والمستقبل.

بين الحقيقة... والنسيان.

تراجع خطوة.

ولم ينتبه إلى لوحٍ خشبي قديم تحت قدمه. صدر صوتٌ حاد.

التفتت " **زيليش** " فجأة. لم تره أول الأمر. رأت الظل. ثم الوجه.

اتسعت عيناها. وتراجع الدم من وجهها.

خرجت منها شهقة قصيرة، أعقبها صراخ اخترق سكون القصر كله. كان صراخًا نقيًا. ليس صراخ خوف فقط. بل صرخة روح شعرت أن المجهول دخل حياتها دون استئذان.

أما " **زاروك** " ...

فقد ، فقد القدرة على التفكير. لم يكن لصًا. ولم يكن يريد أذيتها.

لكنه بدا في تلك اللحظة كمن ضبطه القدر متلبسًا بسرٍ لا يعرفه.

اندفع نحو النافذة. ثم غيّر اتجاهه إلى الباب. ركض عبر الممرات الطويلة. كان يسمع وقع خطواته يطارده، كأن القصر كله يسأله :

ممَّ تهرب ؟ منها ؟ أم من الحقيقة ؟

ظل يركض حتى خرج إلى الحديقة. ثم إلى الطريق.

ولم ينتبه... أنه ترك خلفه فردة حذائه.

عاد الصمت إلى الغرفة. لكن الصمت لم يعد كما كان. كان ممتلئًا بالأثر.

اقتربت " **زيليش** " ببطء. كانت خطواتها مترددة، كأنها تمشي نحو ذكرى لم تعشها. رأت الحذاء. حذاء جلدي قديم، منقوش بعناية.

جلست على ركبتيها. وحملته بين يديها.

ثم توقفت أنفاسها.

هناك أيضًا... الحرفان نفسيهما. **الزاي والجيم.**

مرت أصابعها فوق النقش. كان باردًا. لكن شيئًا دافئًا سرى في قلبها.

أغمضت عينيها.

وفجأة... رأت ومضة. ليست صورة واضحة. مجرد شعور. طفلة تضحك. يد صغيرة تمسك يدًا أخرى.

شمس ذهبية. ثم... اختفى كل شيء.

فتحت عينيها بسرعة.

وضعت يدها فوق قلبها. كان يخفق بعنف.

قالت بصوت يكاد لا يُسمع :

من أنت ؟ ولماذا أشعر أنني لا أخاف منك... بل أفتقدك ؟

نظرت إلى الحذاء مرة أخرى.

ابتسمت ابتسامة خافتة، امتزج فيها الخوف بالدهشة.

ثم همست :

ربما لا تكون بعض اللقاءات صدفة... وربما لا تأتي الأقدار وهي تحمل أجوبة. بل تأتي أولًا... لتزرع الأسئلة.

رفعت رأسها نحو النافذة التي فرّ منها الغريب.

كان الليل قد بسط عباءته على السماء، بينما تلألأت النجوم كحروف مبعثرة في كتابٍ لم يكتمل.

شعرت، لأول مرة منذ سنوات، أن شيئًا تحرك في أعماقها. ليس حبًا. وليس خوفًا. بل يقينًا غامضًا. يقينًا يشبه النداء الذي يسبق الفجر.

وأدركت، دون أن تملك دليلًا واحدًا، أن الليلة لم تكن نهاية حفلة خطوبةٍ أفسدها حادث صغير...

بل كانت الصفحة الأولى من حكاية أكبر بكثير مما يتسع له قلبان، حكايةٍ كتبها القدر منذ زمن بعيد، ثم أخفاها بين حرفين صغيرين ...**الزاي والجيم** ...حتى تحين ساعة البوح.

ς

في تلك الليلة ، لم تعرف " **زيليش** " للنوم بابًا.

كانت الغرفة ساكنة إلا من أنفاس الليل ، غير أن روحها كانت تضج بأسئلةٍ لا تنتهي. جلست عند حافة السرير، تضم ركبتيها إلى صدرها، وكأنها تحاول أن تمنع قلبها من الفرار. أمامها استقر السوار الفضي، وإلى جواره الحذاء الذي سقط في

ارتباك الرجل الغريب ، وكأن الأشياء الصغيرة كانت تحفظ من الأسرار ما تعجز عنه الوجوه.

رفعت السوار بين أصابعها، فتسلل إليه ضوء القمر من النافذة ، فأضاءه كذكرى لم تولد بعد.

ثم وضعت يدها على الشامة الصغيرة التي تستقر فوق صدرها، تلك الشامة التي كانت أمها تقول عنها دائمًا :

ليست علامة جمال يا ابنتي... إنها علامة قدر.

كانت تبتسم كلما سمعتها، لكنها لأول مرة شعرت أن الكلمات ربما كانت تعرف مستقبلها أكثر مما تعرفه هي.

نهضت ببطء، واتجهت نحو الصورة الوحيدة المعلقة على الجدار.

كانت صورة أمها. ابتسمت الصورة كما كانت دائمًا، لكن الابتسامة بدت الليلة أكثر حزنًا.

همست " زيليش " :

أمي... من كان ذلك الرجل ؟

ساد الصمت.

ثم أردفت بصوتٍ خافت :

لماذا لم أشعر بالخوف وحده ؟

كانت تعلم أن اللصوص يسرقون المال، لكن ذلك الرجل بدا وكأنه جاء ليسرق شيئًا آخر... ثم هرب قبل أن يعرف ما هو.

أغمضت عينيها.

استعادت وجهه المرتبك ، أنفاسه المتقطعة، نظراته التي كانت تهرب منها ثم تعود إليها رغماً عنه.

كان يستطيع أن يؤذيها... لكنه لم يفعل.

وكان يستطيع أن يسرق كل شيء... لكنه خرج خالي اليدين، مثقل القلب.

همست لنفسها :

لماذا بدا هروبه أشبه بمن يفر من جرحٍ قديم، لا من غرفة ؟

ς

في الجهة الأخرى من المدينة، كان " **زاروك** " يمشي بلا اتجاه.

لم يكن يعرف إلى أين تقوده قدماه، لكنه كان يعلم يقينًا أنه لا يستطيع العودة إلى المكان الذي خرج منه، ولا إلى الرجل الذي كان عليه قبل تلك الليلة.

كان الليل باردًا، غير أن العرق كان يغطي جبينه.

وقف عند زاوية شارعٍ مهجور، وأسند ظهره إلى جدارٍ حجري، ثم أخذ يلتقط أنفاسه كمن نجا من غرقٍ طويل.

لكن... هل نجا حقًا ؟

أطرق رأسه.

وقال لنفسه :

ماذا أصابك يا " زاروك " ؟

أنت الذي اقتحمت عشرات البيوت دون أن يرتجف لك جفن...

فلماذا ارتجفت أمام عيني فتاة ؟

رفع رأسه نحو السماء. لم تكن فيها نجوم كثيرة، ومع ذلك شعر أن كل نجمة تنظر إليه كشاهدة اتهام.

ضحك بسخرية مرة.

أيها الأحمق... أتخاف الآن ؟ ومن ماذا ؟ من الشرطة ؟ لا... من السجن ؟ لا... إذن ممَّ ؟

طال الصمت.

ثم خرج الجواب من أعماقه كأنه لم يكن ينتظر إلا الاعتراف.

أخاف من نفسي...

لأول مرة. جلس فوق الرصيف. دفن وجهه بين كفيه. كان يرى حياته كلها تمر أمامه كصفحات مبتلة بالمطر. طفولته الجائعة... الأزقة التي ربته على القسوة... الوجوه التي علمته أن يسبق الناس إلى سرقتهم قبل أن يسرقوه...

ثم جاءت صورة " زيليش " فجأة، فقطعت شريط الذكريات كله.

قال في سره :

لماذا كانت نظرتها تشبه طفلةً نسيتها الحياة في منتصف الطريق ؟

لم تكن تنظر إليَّ كأنني لص... بل كأنها تبحث عن شيءٍ ضاع مني قبل أن يضيع منها.

وسأل نفسه سؤالًا أخافه أكثر من أي حكمٍ قضائي :

هل يمكن للإنسان أن يعيش عمرًا كاملًا وهو يظن أنه يعرف نفسه... ثم تكشف له نظرة واحدة أنه كان غريبًا عنها ؟

ظل يمشي حتى بلغ البحر. كان البحر ساكنًا بصورة مريبة ، كأنه شيخٌ حكيم تعب من الكلام، فاكتفى بالإصغاء إلى أحزان البشر.

وقف " زاروك " أمام الأمواج.

قال لها :

يا بحر... كم أخفيت من الأسرار ؟ وكم غسلت من الخطايا ؟ هل تعرف كيف يشعر اللص حين يكتشف أن أكثر ما سرقه في حياته كان قلبه هو ؟

جاءه صوت الموج، خافتًا، ثم عاد إلى صمته.

وكأن البحر يعرف أن بعض الأسئلة لا تجيب عنها الكلمات، بل الأعمار.

ς

في تلك اللحظة نفسها ، كانت " زيليش " لا تزال جالسة أمام صورة أمها.

أخذت تحدثها كما كانت تفعل وهي صغيرة.

أمي... لو كنت هنا... هل كنت ستمنعينني من التفكير فيه ؟ أم كنت ستقولين إن القلوب ترى ما لا تراه العيون ؟

تخيلت أن أمها تبتسم. سمعتها في خيالها تقول :

احذري يا ابنتي... فالقلوب لا تخطئ كثيرًا...لكنها تدفع ثمن يقينها غاليًا.

ارتجفت. ليس خوفًا... بل لأن الكلمات أصابت مكانًا في روحها لم تكن تعرفه.

اقتربت من النافذة.

كان البحر يبدو بعيدًا، لكنه بدا الليلة أقرب إليها من غرفتها نفسها.

وقالت:

أين أنت الآن ؟ وهل تفكر فيَّ كما أفكر فيك ؟

ثم تراجعت مذعورة من سؤالها.

وضعت يدها على فمها.

وقالت :

ما الذي أقول ؟

أنا لا أعرفه... حتى اسمه لا أعرفه...

فكيف صار غريبًا يسكن أفكاري أكثر من كل الذين عرفتهم ؟

ς

أما " زاروك " ، فكان يحدق في صفحة الماء.

ثم همس :

لن أعود. لن أعود إلى السرقة. ليس لأنني أصبحت صالحًا... بل لأنني رأيت في عينيها الرجل الذي كان يمكن أن أكونه لو لم تسرق الحياة طفولتي.

لكنه سرعان ما ابتسم بمرارة.

وه،ل يكفي الندم ليغسل الماضي ؟ وهل يغفر القدر لمن تذكر ضميره متأخرًا ؟

لم يجبه أحد.

إلا أن نسمة بحر مرت بطيئة، فشعر لأول مرة منذ سنوات أن الهواء لا يحمل رائحة المطاردة، بل رائحة بداية مجهولة.

ς

في الأيام القادمة، لم يكن أيٌّ منهما يعلم أنه صار يعيش داخل ذاكرة الآخر.

كانت " زيليش " تستيقظ كل صباح وهي تقنع نفسها بأنها نسيت، ثم يكفي أن تقع عيناها على السوار حتى تعود الليلة كلها حية.

وكان " زاروك " كلما همّ بمد يده إلى جيب أحد المارة، ظهرت أمامه عيناها، فتتجمد أصابعه، ويشعر أن السرقة الحقيقية لم تعد المال، بل خيانة ذلك الضوء الذي أيقظته فيه.

كان كل منهما يقاوم الآخر... دون أن يلتقيا.

وكان القدر يبتسم في الخفاء.

فالطرق التي يرسمها البشر مستقيمة ، أما الطرق التي يرسمها الحب ، فتبدأ دائمًا من الانكسارات.

ς

أما تلك الشامة الصغيرة التي تزين صدر " زيليش " ، فقد لم تعد مجرد تفصيل جميل في وجه فتاة يانعة.

غدت رمزًا غامضًا، كأن القدر وضعها هناك لتكون ختمًا على رسالة مؤجلة ، لا يقرؤها إلا من عبر كثيرًا من العتمة.

وربما لهذا السبب توقفت عينا " زاروك " عندها في تلك الليلة، لا لأنها أغوته ، بل لأنها أيقظت في داخله ذكرى لا يعرف لها اسمًا.

وكأن الروح تعرف أصحابها قبل أن تتعارف الأسماء.

ς

التفتت الفتاة التركية نحوي بعدما انتهت من رواية ما حدث.

كانت الدموع قد رسمت على خديها طريقين لامعين، لكنها لم تحاول أن تمسحهما. فالدموع، أحيانًا، لا تطلب من يمحوها، بل من يفهم لغتها.

قالت بصوتٍ متعب:

الناس يظنون أن الحب يبدأ بابتسامة...

لكنه كثيرًا ما يبدأ بخوفٍ لا نفهمه، أو بلقاءٍ يبدو كأنه خطأ، بينما يكون أدق مواعيد القدر.

ثم صمتت. كان صمتها أطول من الحكاية كلها.

وبقي البحر أمامنا يلمع تحت ضوء القمر، كعينٍ هرمةٍ رأت من قصص البشر ما يكفي لتدرك أن أكثر الحكايات صدقًا هي تلك التي تبدأ حين نظن أنها انتهت.

ظل الموج يقترب ثم يعود، كأنه يكتب على الرمل أسماء العاشقين، ثم يمحوها حتى لا يفسد على القدر مفاجآته.

أما أنا، فبقيت أحدق في الأفق البعيد، وأسأل نفسي سؤالًا لم أجد له جوابًا حتى اليوم:

أكانت تلك حكاية حب ؟ أم كانت حكاية روحين أضاعهما الزمن طويلًا، ثم جعلهما يلتقيان مصادفة، ليكتشف كل واحد منهما وجهه الحقيقي في عيني الآخر ؟

وربما... لم تكن هذه ولا تلك.

لعلها كانت حكاية الإنسان نفسه؛ ذلك الكائن الذي يظن أنه يهرب من الآخرين، بينما يقوده الطريق، في أكثر لحظاته ظلمة، إلى الشخص الوحيد الذي سيجبره على مواجهة ذاته.

فالقدر لا يطرق الأبواب دائمًا برفق. أحيانًا، يدخل متنكرًا في هيئة لص. وأحيانًا، يختبئ داخل دمعة فتاة.

ثم يترك القلب ، بعد ذلك، ليكمل الحكاية.

ς

و كادت تضع اللمسات الأخيرة لروايتها حتى ارتفع آذان الفجر " الصلاة خير من النوم " , فذهبنا جميعا إلى الصلاة